علاقة الأسلوبية بعلم اللغة :

ارتبطت نشأة الأسلوبية من الناحية التاريخية ، ارتباطا واضحا بنشأة علوم اللّغة الحديثة ، ووفق ما يرى بعض الباحثين، تتحدّد الأسلوبية بكونها احد فروع علم اللّغة ، فقد ساعد على ظهورها ذلك التطور الذي لحق الدراسات اللّغوية على يد (دي سوسير) ، مند بدايات القرن العشرين ، حيث كان علم اللّغة في القرن التاسع عشر خاضعاً للأثيرات الفلسفية، والتي عمد علم اللّغة الحديث (اللّسانيات) إلى إقصائها من الدراسة اللّغوية والنقدية ، عبر إقامة تصورات علمية للغة ، وإخضاعها للملاحظة العلمية المباشرة ، ومن ثم نجح هذا العلم الحديث في إدخال اللّغة في مجال العلم ، وأخرجها من مجال الثقافة والمعرفة.

ولأن الأسلوب هو« ظاهرة ذات أصل فردي ، وطبيعة نفسية فلم يكن ليجد له مكانا في هذا الإطار الذي لا يعني من اللغة سوى بخواصها المادية الطبيعية ، دون اهتمام بعلاقتها بالفكر ، والذي يركز على حقائقها المجرّدة ، بغض النظر عن صلتها بالأفراد المنتجين لها » ، ومن ثم كانت عملية إخضاع المادّة اللّغوية (الأسلوب) للمنهج العلمي الوصفي أشدّ عسرًا وتعقيدا ، لذلك ذهبت الأسلوبية ، تبحث في مخرجات الجهود اللّسانية ، حتى أفادت من تطور الفكر العلمي ،وتجدد الفروع اللّغوية واستطاعت أن تعيد لفكرة الأسلوب أهميتها ، فقدّمت «مدخلا لغويًّا لفهم النص» وقد كان من أهم الجهود اللّغوية ، التي استفادت منها الدراسة الأسلوبية ، في تحديد تصوّراتها ومنطلقاتها الفكرية ، ما تعلّق بثنائية اللّغة والكلام بوصفة « الحيّز المادي ، الملموس ، الذي يأخد أشكالا مختلفة قد تكون عبارة أو خطابا أو رسالة أو قصيدة ، وإذا كان الكلام هو موضوع الدراسة الأسلوبية ، فإن اللغة هي المعيار الموضوعي الذي تقاس به خصوصيّة الأسلوب ، واختلافه من فرد لآخر » ذلك أن « التمييز بين اللّغة كظاهرة لسانية مجرّدة ، توجد ضمنيّا في كل خطاب بشري ولا توجد البتّة هيكلا حيويًّا ملموس ، والكلام باعتباره الظاهرة المجسّدة للّغة ، قد ساعد على حصر مجال الأسلوبيّة ، وهو الحيّز العملي المحسوس المسمّى عبارة أو خطابا أو نصًّا أو رسالة أو طاقة بالفعل»

إن أوّل من اهتم بالكلام في إطار الدراسة الأسلوبية ، كان (شارل بالي) الذي ركّز على « الطابع العاطفي للغة ، وارتباطه بفكرتي القيمة والتوصيل » حيث «يصنف الواقع اللّغوي تصنيفا يرى من خلاله للخطاب نوعين ما هو حامل لذاته ، غير مشحون البتّة، و ما هو حامل للعواطف والخلجات وكل الانفعالات» ويقصد بالطابع العاطفي ، حسب (شارل بالي) المضمون الوجداني للغة ، على سبيل المثال ، عندما تنادي أم طفلها باسمه ، فإنها تعتمد مفردات وتراكيب ، وأدوات نداء ... معينة ، فقد تناديه حبًّا وحنانا ، أو ذعرًا أو غضبا ...حيث يكون ذلك مرفوقا بشحنات عاطفية تميز المدلول الأساسي في هذه الحالات على مستوى الدال تختف هذه الشحنات العاطفية ، حسب اختلاف السياق اللّفظي، الذي يرتبط بظروف معينة ، ولأهداف معينة ، وهنا يعتقد (صلاح فضل) أنه لا يمكن أن تنادي أحدًا مثلا ، دون أن يتضمن نداؤك حدًّا أدنى من التعبير ، ولو كان بطريقة نطق اسمه ،فحسبكما أن عددًا كبيرًا من التركيبات النحوية الدائرة ، قد ولد بفعل الشعور، ويترتّب عن ذلك أنه « ثمة علاقات طبيعية ،بين الفكر و البنى اللّسانية المعبّرة عنه وهناك نوع من التعادل بين الشكل والمضمون ، كما أنّ هناك استعدادًا طبعيا يقوم في الشكل بالتعبير عن بعض فئات الفكر»

وفي هذا السياق يرى(شارل بالي) أن علم اللّغة الذي نظر إليه أستاذه (دي سوسير) ، هو استخلاص لبنية اللغة، وهيكلها المادي فقط(مفردات ، روابط ، قواعد، تراكيب ، أصوات ...)، وهو بذلك لم يدخل إلى روحها ، أو التأثير العاطفي لها ، لذا حاول أن يثبت أن اللغة بقيمها السويسرية هذه ، تحوي بعدًا عاطفيا آت من الأسلوب، ومن ثم كانت أسلوبيته هي « أسلوبية الأثار ،وبديل لعلم الدلالة ،تدرس علاقات الشكل بالفكر، مثلما تدرس الأبنية ووظائفها داخل النظام اللّغوي».

إن هذا النزوع لدى (شارل بالي) جعله يركّز على اللّغة اليومية المنطوقة، وهو ما صرفه عن العناية باللّغة الأدبية حيث « قصر نظريات الأسلوبية على اللّغة العادية المستعملة دون اللّغة الشعرية ». ذلك أنه «لا يهتم بالاستخدام الذي يتبدّى لدى مؤلف معيّن ، للقيم التعبيرية ،ولا يتساءل عن خواص الشخصيات والمواقف أو إيقاع القطعة أو العمل ، فكل هذا يعتبره

من قبيل الدراسات الأدبية الجمالية التي يحتفظ لها بكلمة أسلوب دون أن يجعلها داخلة في علم الأسلوب ، طبقا لمصطلحه ،هذا العلم الذي يقتصر عنده على دراسة وقائع التعبير اللّغوية بصفة عامة» وهنا تجدر الإشارة إلى أن الدراسات اللّغوية التي ذهبت تفرّق بين الكلام العادي والفنّي ، قد بدأت مع جهود الشكلانييّن الرّوس مثل (جاكبسون) و (شكلوفسكي)و(تنيانوف)... وغيرهم، فقد ركزّ (جاكبسون)على «أدبية الأدب ، وما يرفع الكلام من مرحلة التبليغ والإيصال إلى المرحلة الفنية ، وهي الوظيفة الشعرية».

لقد كانت دراسة (شارل بالي)رائد الأسلوبية ،دراسة لغوية ،لا دراسة أسلوبية ، أو بمعنى آخر أسلوبية لغوية ، لأنّها لا تقتصر على النص الأدبي بل تستبعده من مجالها ، بدعوى أنه تهديب للعاطفة ، وصناعة لغوية لذلك ركّزت على الكلام الطبيعي الذي تتمثله « اللّغة العامة ، المتكلّمة العفوية ،وذلك بغض النظر عن كل توسّع في أشكالها الأدبيّة» وعليه فقد كانت « الدراسة التي كانت تسمّى عنده علم الأسلوب ، تبحث في لغة جميع الناس ، بما تعكسه ، لا من أفكار خالصة ، بل من عواطف ومشاعر و اندفاعات وانفعالات ، أي أن موضوعها لغة كل الناس ،كوسيلة للتعبير والفعل » وهكذا نرى أن موضوع الأسلوبيّة عند (بالي) ،هو دراسة المضمون الوجداني أو العاطفي ، فقد أراد أن يعي وظائف اللّغة ، وليس وظائف بعض الصّور الجامدة ، كما أراد أن يعي اللّغة عبر متغيّراتها اللاّ متناهية وبناها الحيّة. غير أن المتتبّع للدرس الأسلوبي ،وعلاقته بعلم اللّغة ، والمدارس اللّسانية التي انبثقت عنه ، في مسيرة تطوير الجهود اللّسانية السّوسيرية ، يجد أن المنبع الأساسي والخصب للدارس الأسلوبي ، كان بما قدمته النظرية التويلية (لتشومسكي) ، فقد أكّد هذا الأخير أن ثمة جانبين ، ينبغي أخذهما بالاعتبار هما الأداء اللّغوي Performance وتتمثّله البنية السّطحية ،Surface structure ، ويقصد به الكلام المنطوق ، وهناك الكفاية اللّغوية Competence ، وتمثّله البنيّة العميق Deep structure وهي الجذور التي تمّد البنية السّطحية بمقوّماتها وتحويلاتها .

لقد استفادت الأسلوبية من مفهومي البنية السطحيّة ، والبنية العميقة وغيرها من الاصطلاحات والمفاهيم التي أفرزتها النظرية التحويلية ووظّفتها الأسلوبية ، في محاولة لجعل عملها أكثر دقة ، ومنهجيّة فكان« الأسلوب والبنية السطحية (انزياح) ، وهو انزياح عن البنية العميقة للأسلوب»

إن الأسلوب بوصفه انزياحا ، يقع ضمن ما يسمى« بعملية الاختيار عند تشومسكي» حيث « تدور ماهية الأسلوب على محور الاختيار» على حسب تعبير (عبد السلام المسدي) إذ إن اختيار الروائي أو الشاعر لبعض التحويلات اللغوية دون غيرها ، وإلحاحه عليها من بين مجموعة التحويلات الكامنة في النظام اللغوي ، يعد استخداما مميزا ومنزاحا لطاقات اللغة فالتركيب يمكن تحويلة إلى تراكيب متعددة ، على مستوى البنية السطحية، وهذا يمثل بدائل خصبة من مجموع الاستعمالات الممكنة للدارس الأسلوبي

إن الاختيار(الانتقاء)هو ما يقوم عليه الكلام كله، وهو محور الوصول إلى الجمالية الأسلوبية في النص ، والتي يمثل الانزياح أحد أبرز قنواتها ، وبناء عليه ، فثمة صلة وثيقة بين الاختيار والانزياح ،حيث أن الأسلوب يتحدد بأنه «اختيار choix أو انتقاء selection ، يقوم به المنشئ لسمات لغوية معينة من بين قائمة الاحتمالات المتاحة في اللغة » والذي يهدف من خلاله إلى إحداث عنصر المفاجأة لدى المتلقي ، بتضافر كل من الاختيار والانزياح أو الانحراف عن النمط ومفارقته ، والذي يعدّ شكلا من أشكال الاختيار ومحصّلة له.

وعليه يمكن القول أن « الاختيار يفتح المجال لتجميع مفردات الظاهرة الأسلوبية ، وضم شتاتها ، في منظومة بحثية واحدة ، ذلك أن الاختيار أمر يفترض أن يقوم به المنشئ على كافة مستويات التواصل،بدرجات متفاوتة،ومن ثم فهو ليس محض اختيار لغوي وحسب،بل هو محكوم من جهة بإمكانات المقال ، ومن جهة أخرى بمقتضيات المقام » فللكلمة المختارة أثر فعال في تقرير المعنى المراد داخل التركيب ، وأي تغيير لها يؤدي إلى تغيير فيه ، فأي عنصر داخل التركيب يؤدي في موقعه وظيفة المنوطة به، وبذلك يكون الاختيار أحد العوامل التي تحدّد التشكيل النهائي لأسلوب النص ،ومن خلاله تتحقق

مفارقة النص للمعيار المعتاد ،هذه المفارقة التي تمثل انزياحا أو عدولاً يراد به الخروج عن المألوف ، سواء أكان هذا الخروج صوتيا ، صرفيا ، نحويا ، معجميا ، أم دلاليا، عن طريق استغلال إمكانات اللّغة وطاقتها الكامنة.

الأستاذة ورود